المحاضرة التاسعة: الأدب الإنجليزي

منذ عهود احتُلّت بريطانيا من قِبل السّلتيين، واجتاحها في القرن الأول ميلادي الأنجلوسكسونيون المتدفّقون من الدانمارك، فلم يجد السّلتيون بدّا من التقهقر والاستقرار في بلاد الغال للحفاظ على هوّيتهم ولغتهم، بينما استولى المنتصرون على بقية الأراضي البريطانية وفرضوا لغة السّكسون على سكّانها الأصليين. وبعد غزو الرّومان لبريطانيا في القرون الأولى جاء دور **غيوم الفاتح** (ت1087م) الذي أخضع السكسونيين لسلطته سنة 1066م، فدخلت معه اللغة الفرنسية إلى الدّيار البريطانية وأخذ نفوذها يتّسع تدريجيا ولا سيما على حساب اللاتينية لغة الكنيسة والعلماء وأصبحت لسان الطّبقة الأرستقراطية والأدباء الذين نبغ منهم **روبرت ويس** (ت1180م) مؤلّف: **مفخرة البريطانيين** بالفرنسية. لكنّ الملك **إدوارد الثّالث** (ت1377م) جعل حدّا لانتشار الفرنسية لما أمر سنة 1350م استبدالها في التعليم والمؤسّسات العمومية باللغة القومية، فاكتملت بذلك نشأة الإنجليزية الحالية من مزيج بين لهجتي السكسون والنورمان، وهي اللغة التي استعملها **جون وكليف** في أول ترجمة للكتاب المقدّس سنة 1378م.

1_ **البواكير الشعرية:** يرجع أقدم أثر أدبي عرفته إنجلترا إلى لغة السّلتيين؛ ويعزى ذلك إلى الشعراء الغنائيين الأسكتلنديين الذين عاشوا ما بين القرن 2و3م، وهم في ذلك أشبه الجوّالين الفرنسيين. ولعلّ أشهر هذه الآثار الأدبية هي تلك المرتبطة بـ**أوسيّان** ملك الكلدانيين الذي حارب الرومان بلا هوادة، ولما كبر وعجز وأصابه العمى، علق يشدو أمجاد آله ومفاخر أجداده على خطيبة ابنه ليواسيها ويخفف عنها آلامها، فنقلت أخباره وتناقلوها جيلا بعد جيل إلى أن تفطّن إليها **جاك ماكفرسون** (ت1796م) الذي جمع في شكل ديوان.وقد قيل أنّ هذه الأشعار منتحلة ولكنّها لقت رواجا كبيرا بين أوساط القرّاء.

أمّ الأساطير الشّعرية فقد ظهرت في عهد الاحتلال النورماندي الذي دام ثلاثة قرون (1350/1066) وتغنّت كلّها بأبطال القصص الفروسية والملاحم البطولية ذات الأصل السّلتي أو الفرنسي أو الشّعبي، وفي النوع الأخير خُصّ **روبان ملك الغابات** بأروع النصوص التي بالغت في تمجيد أسطورة الناقم على الظلم وحامي الضّعفاء من شرّ الإقطاعيين.

ومع بداية الانبعاث الإنجليزي يتقوّى ويعلو شأن الشّعر مع **جوفري تشوسير** (ت1400) ويعدّ أبًا للشّعر الإنجليزي الأصيل وأحد أدباء إنجلترا العظماء، قام بترجمة قصّة **الوردة** الفرنسية، وألّف **حكايات كونتربري** فأبدع وساهم في تثبيت النحو وللغة الإنجليزية.

2_ **المسرح في عهد الملكة إليزابيث:** عُرفت فترة حكم الملكة إليزابيث وجاك الأول (1625/1558م) بأنّها الفترة التي وصل فيها الانبعاث إلى ذروته، وكان للأدب الإنجليزي اليد الطولى في الازدهار الثّقافي بمختلف أصنافه؛ ازدهار اتّسم بالأصالة رغم محاكاة القدامى والإعجاب بهم. وما يسترعي الانتباه أنّ المسرح كان أكثر الأجناس الأدبية انتشارا يومذاك وأقواها استجلابا للجمهور (فقد وجدت في العاصمة البريطانية 17 قاعة للمسرح مقابل واحدة في باريس)، وقد كانت وسائل المسرح المادية جدّ بدائية كاستعمال اللافتات مكان الديكور وقيام الأطفال بدور النساء... لكن الجمهور الإنجليزي لم يكن بشتّى فئاته الاجتماعية أن يميل أو يستسيغ مشاهدة المأساة الكلاسيكية التي حاول كل من **إدموند سبينسر وبنيامين بونجونسون** فرضها عليه، وإنّا كان يحبّذ الدراما على طريقة **كريستوفر مالرو**(1393م) و**ويليام شكسبير** (1616م)، والدراما الإنجليزية خليط عجيب من أسرار القرن الوسيط من المأساة والملهاة القديمتين، فجاءت مشاهدها المثيرة في منتهى العجب والتنوّع تحتوي الجد والهزل...

3_ **جون ملتون والفردوس المفقود:**مع انتهاء عهد الملكة إليزابيث الزاهر حتى دخلت إنجلترا في فترة إضطرابات والثورة حكم **أوليفر كروميل** الاستبدادي (1658م)، فولّت إنجلترا الزاهية الأدبار وسدّت مسدّها إنجلترا الكئيبة والمتزمّتة، وصار الأديب _مذ حُكم على الفن بالحظر باسم الطّهرية_ مثل غيره لا يفكّر إلا في خلاصه ونجاته، فأصبح الشّعر وسيلة للدّفاع عن الديانة المقدّسة، وبرز وازدهر الفن الخطابي الجدلي والمقالة النقدية اللاهوتية. وفي هذه البيئة المتزمّتة نشأ **جون ميلتون** الذي ولد سنة 1608م وكان شديد الاعجاب بكروميل وبأفكاره التحرّرية والطّهرية فبادر إلى الانضمام إلى الثورة فور رجوعه من إيطاليا وكتب مقاله:**في تمجيد قتل الملك**.ولكن سرعان ما قُضي على الثورة وقُبض على ميلتون وأصبح طيّ النسيان يعيش الفقر المدقع والهوان إلى أن فقد بصره فوجد في إملا ملحمة **الفردوس المفقود** (1677م) على ابنتيه ما يخفّف عنه ضنك العيش وقساوة الشيخوخة. وكانت الملحمة قصة الإنسانية أو قصيدة الإيمان المسيحي مرتّلة من قِبل مؤمن صادق مشبّع بالإنجيل ، وقد أثّر في عديد الشعراء الفرنسيين أمثال: **فولتير، شاتوبريان، هيغو، تين...**

4_ **القرن18م**: هو عصر كلاسيكي في نصفه الأول (1744/1700م) وحافظ على المثل الأعلى الكلاسيكي في نصفه الثاني (1798/1744م):

أ_ **الفترة الكلاسيكية**: تعتبر السنوات 44 الأولى من القرن 18م عصر الملكة **آن ستيوارت** (1714ت) فترة كلاسيكية لأنّ الأدباء الإنجليز كانوا تحت تأثير الفكر الفرنسي المباشر وهيمنته القوية، كما أن الإيمان بالعقل وما ينجم عنه من قواعد وقوانين صالحة للفن والأخلاق أتى على الحرية والإلهام اللذين واكبا حكم إليزابيث اللامع، وقد مثّل **ألكسندر بوب** 1744 تلك الفترة واعتبر ربّ المدرسة الشعرية آنذاك بأشعاره الجزلة ومقالاته النقدية، وتردم الإلياذة والأوديسا شعرا، وسخر من ملحمة الجهليات 1743م من الأدباء الأغبياء، وله قصيدة غزلية بعنوان **خصلة الشعر المنتزعة** 1712م. وله محولتان مشهورتان الأولى **في النقد** والثانية **في الإنسان** وكلتاهما شعرية وذات هدف تعليمي، وقد خلفه **صمويل جونسون** لسيطرته المطلقة على الحياة الثقافية في النصف الثاني من القرن 18م.

ب_ حركة ما قبل الرومانسية:ما إن وارى جثمان **بوب** الثرى سنة 1744م حتى حدث انقلاب على العقلانية الضيّقة والجمالية الكلاسيكية، فأصدر **أكنيسد "لذّات الخيال"، وجوزيف وارتن "المتحمّس" و"الولوع بالطبيعة"** معبّرَيْن بصراحة عن تقزّزهما من الخضوع للقواعد وتفضيلهما للإلهام العفوي على الحداثة والتصنّع. وتقوى "**حركة ما قبل الرومانسية**" مع ويليام بلاك وروبرت بورنس، وجيمس تومسون، وتوماس غري، وويليام كوبر، وجاك ماكفرسون... ويكتسي أدبهم بطابع الكآبة القلقة مثل "لذّات الكآبة" لوارتن...

ج_ **ازدهار الرواية**: راجت القصة النثرية في هذا العصر بمختلف أشكالها وتألّقت فيها أسماء كثيرة، لكن أشهر الروائيين كان **دانيال ديفو** (1731م)، ويعدّ رائد الصحافة الحديثة، وارتبط اسمه ب**مولّ فلندرس، ويوميات طاعون لندن**، ورائعته العالمية **روبنسون كروزو** ذات الشهرة اللامحدودة. وقد تضمّنت أخبار بطلها المسكين في مغامراته المدهشة والعجيبة. إضافة إلى الروائي**جوناثان سويفت** (1745م) المتميّز بطبعه الحاد الساخر وهجائه العنيف خاصة في قصة **البرميل** ورائعته **أسفار غولّيفر** وقد استغلّ أسفار بطله وجولانه في بلدان وهمية يقطنها العمالقة والأقزام والعلماء ليسلّط نقده اللاذع على الإنسان نفسه والمجتمع والدين والعلم والنظام السياسي الإنجليزي...أمّا الروائي**صامويل ريتشاردسن** (1761م) فقد تناسبت مؤلّفاته القصصية مع إنجلترا الخلقية والمتقشّفة التي سادت في النصف الثاني

من القرن 18م، وكان مجيؤه إلى الرواية في سن متأخّرة فغلب الوعظ على ثلاثيته **الفضية المكافأة، كلاريس هارلو، شارل غرنسدسن** ذات المضمون حول الصراع بين الخير والشر.

5_ **التيار الرومانسي:** كان الشاعران **تومسون** 1748م **ويونغ** 1765م من زرعا بذور الرومانسية الأولى ثم تأكّدت ملامحها بصفة جلية في النصف الأخير من القرن 18م، فألفى أصحابها في الرجوع إلى الطبيعة والشعور الديني القوي ما يعيد الشعر إلى منزلته اللائقة به مثلما كان في عهد الملكة إليزابيث، وظهر ثلة من الأدباء سمّوا **بالبحيريين** لاعتزالهم العالم الحضاري والإقامة على ضفاف البحيرات الواقعة في شمال غرب إنجلترا والاستمتاع بمناظر الطبيعة الخلابة. ولعل ولعهم بالطبيعة هو ما ميّزهم عن بقية الشعراء واعتبارهم الشعر حالة نفسية لا مجرد مشاعر مفتعلة وإيثارهم عامة الناس والحياة الريفية، ومن أشهرهم الشاعر **كولوريدج** (ت1834)، و**ويليام ووردزورث** (ت1850) ونشرا ديوانا بعنوان **الموشّحات الغنائية** 1798 م عُدّ أول منشور للرومانسية الإنجليزية.

6_ **القرن 19م:** وقد كان أزهى العصور الأدبية الإنجليزية وأكثرها غنى وخصبا في مجال الرواية والشعر؛ إذ برز في الرواية كل من:

أ_ **الرواية التاريخية مع والتر سْكوت:** الأسكتلندي الأصل 1771م من أشهر أعماله رواية **وافرلي** (1814م)، **أيفانهو** أو صفحة من تاريخ القرن الوسيط، **القس** أو منافسة إليزابيث لماري ستيوارت، **كنلورث** أو عهد إليزابيث... وإليه يرجع الفضل في ابتكار الرواية التاريخية التي عهد إلى مضمونها الرئيس العناية بالتاريخ على حساب الدّسيسة الغرامية وإعادة الماضي إلى الصدارة. وقد توفّرت ل**سكوت** كل الصفات المطلوبة للنجاح؛ فقد كان راويا ماهرا يعرف كيف يجدد المتعة ويحيط جو الوقائع بالسر والتوتّر.

ب_ **الرواية الشعبية وشارل ديكنز:** وُلد لأسرة فقيرة سنة 1812م واحتكّ بالفئات الاجتماعية السفلى مما أكسبه معرفة جيدة بشوارع لندن، وغرس في نفسه شعور التعاطف مع أشباهه من المعوزين والفقراء الذين صاروا فيما بعد مادة رواياته المنشورة في الصحف اليومية، وأصبح مشهورا أكثر من أي أديب إنجليزي وانتقل اسمه إلى الو م أ، وإيطاليا، وفرنسا. من أعماله **السيد بكويك** 1837 رسم شخصية نصف مضحكة تثير الإعجاب والتعاطف في النفوس، وفي **أوليفر تويست** 1838م تعرض إلى محن طفل داخل مساعفة عمومية، وفي **متجر الأثريات** 1840م قدّم صور المعاملة السيئة... وكان

ديكنز وصّافا حاذقا لحياة البسطاء اليومية، وكان ينقد الحياة القاسية التي يعيشها أغلب الناس في مجتمع متصنّع، ولكنه لم يكن واقعيا بالمعنى الدقيق لأنه كان يبحث دوما عن نهاية سعيدة لأبطاله.

ج_ **الرواية الواقعية وثاكري، وجورج إليوت:** تكرّست مع **ويليام مكبيس ثاكري** 1863م الرواية الواقعية المتشائمة، المتميّزة بالملاحظة الدّقيقة؛ لأنّ ثاكري كان ذا مزاج ساخر وناقم على المجتمع الإنجليزي، فوجّه سخريته ونقده صوب كل ما وقع عليه بصره من انحرافات ومفاسد ونقائص. فقد ترصّد في عديد أعماله مثل **معرض الخيلاء، وحكاية بندنّس، والوصوليون** لتصرّفات معاصريه السّلبية كالأنانية والكبرياء والغرور... وكانت نزعة الأسى والتشاؤم غالبة على أعماله مما حدّت من شهرته وثبّطت عزيمته عن منافسة ديكنز منافسة حقيقية.

أمّا **ماري آن إيفانس** 1880م المعروفة باسمها المستعار **جورج إليوت** فقد تميزت بذكاء ثاقب وثقافة علمية وأدبية واسعة غذّت ذوقها النّقدي والإبداعي معا، وكانت مهتمة في كتاباتها بالمشكلات الأخلاقية وميلها الصريح إلى حب الوضعاءوالمحرومين من أدنى شوط الحياة الكريمة. وقد خصّصت معظم أعمالها مثل: **مشاهد من الحياة الكهنوتية، وآدم بيد، وطاحونة على نهر فلاوسن، وسيلاس مرنير**...إلى وصف الحياة الريفية وما يقاسيه أصحابها من صعوبة العيش، فجاء وصفها صادقا وواقعيا لاعتمادها الملاحظة الدقيقة والتحليل النفسي النافذ إلى الأعماق والابتعاد عن تهكّمات ثاكري وتعاطف ديكنز الساخر.

أمّا في مجال **الشعر** فقد برز شعراء مجيدون أمثال **جورج غوردن، وبيرون** هذا الأخير الذي بلور في أشعاره حلول الأنا وارتقى به إلى حيث المجد، وقد كانت أشعار الوصفية مثل **حجة الفارس هارولد، ومجموعته الشرقية** المتضمنة انطباعاته حول الشرق أو الملحمية ك**دون جوان** التي نعتت بأوديسة الخلود، فهي لا تخرج عن إطار الأدب الذّاتي ولا تكشف سوى عن شخصية بيرون في ثورته وهدوئه، وكانت أشعاره ذات طابع غنائي عاطفي غذّى حاجة أوروبا الرومانسية إليها.

وظهر في الفترة نفسها تيار **الشعر الخالص** مع **جون كيتس** 1821م، و**برسي بايش شيللي** 1822م، و**إليزابيث بارّيتّ، وألفريد تنسون**... الذين نحوا كلّهم نحو الجمال الصرف وكانوا خير ممهّدين للمدرسة البرناسية الفرنسية، إنهم شعراء الحسّ والانطباع والحدس والشكل الذي لا عيب فيه.

ما يمكن قوله في الأخير: أنّ دارس الأدب الإنجليزي لا يمكن أن يفيه حقّه في بضع صفحات؛ فهناك أدباء آخرون لهم مواهب في مختلف الأجناس الأدبية، فمنهم من برع في التاريخ مثل **مكولاي** الذي أرّخ

لإنجلترا، و**توماس كارليل** 1881م الذي اشتهر بمؤلّفه حول **الثورة الفرنسية**، ومنهم من تفوّق في الرواية مثل: **أوسكار وايلد** 1900 صاحب مؤلف **صورة دوريان غري**. ولعلّ أحسن خاتمة للأدب الإنجليزي في القرن 19م وقبيل مطلع فجر الأدب المعاصر روايات **ستيفنسون: جزيرة الكنز، الدكتور جكيلّ،والسيد هايد**.

المصادر والمراجع:

– سلامة موسى، الأدب الإنجليزي الحديث، سلامة موسى للنشر والتوزيع،ط1، 1933، ط3، 1978.

– نبيل راغب، معالم الأدب العالمي المعاصر، دار مصر للطباعة، مكتبة الإسكندرية، مصر،(دط)،(دت).

– فؤاد المرغي، المدخل إلى الآداب الأوروبية، منشورات جامعة حلب، سورية، ط2، 1992.